الشباب.. الواقع والطموح والمعوقات

■ في مرحلة الطفولة يتمنى ابن الطبيب أن يكون طبيباً، وابن المهندس أن يصبح مهندساً، وابنة المعلّمة مثل أمّها، لكن أمنيات الطفولة ليست بالضرورة مشاريع للمستقبل، فقد تتبخر مع تقدم العمر، فما إن يصل الفتى أو الفتاة إلى سن البلوغ حتى يستشعر شخصيته المستقلة التي تبحث عمَّا يجعل منها كائناً اجتماعياً ذات وجود نافع بذاته.

إن الشاب أو الشابة ينتقلان في هذه المرحلة من »الشخص« إلى »الشخصية« باحثين عن السبل التي تمنح شخصهما امتيازات جديدة، كأن يكونا شخصية أدبية أو علمية أو ثقافية أو اجتماعية أو قيادية أو فنية وما إلى ذلك، ففي هذه المرحلة لا يكتفي الشبّان والشابات بالموقع الاجتماعي العادي الذي ربما تكون الظروف العائلية أو المحلية أو المعيشية قد صنعته ضمن قالبها الخاص.

كمال حسين

إن الشاب، «فتى كان أم فتاة»، ينزع إلى أن يكون في الموقع الأنسب الذي يختاره بنفسه ويصنعه بيديه، وهذا طموح مشروع يحق لكل شاب أو شابة أن يتطلعا إليه، وأن يعملا من أجل الوصول إليه، فمن الخطأ اعتبار موقعنا الاجتماعي قدراً مقدوراً، بمعنى أنه يتعذر علينا تغييره، وكأنه بناء أثري يصعب هدمه أو شجرة معمّرة لا يمكن اقتلاعها، ذلك أن مستقبلنا بأيدينا، ولعل الكثير ممن بقوا يراوحون في مواقعهم لم يبذلوا الجهود المطلوبة للخلاص من هذا الواقع أو ذاك الموقع، ولو نظرنا حولنا لرأينا كيف أصبح ابن العامل طبيباً وابن الموظف البسيط محامياً، وابن البقّال مهندساً شهيراً، وربما ابن الأمّي كاتباً معروفاً وهكذا.

ولقد قيل إن المرء حيث يجعل نفسه، إن رفعها ارتفعت، وإن وضعها اتّضعت، وقيل كذلك : «همّوا بمعالي الأمور لتنالوها»، ومما يروى في هذا الصدد أن «كافور الإخشيدي»، الذي كان حاكماً على مصر أيام المماليك، كان قبل أن يصبح ملكاً هو وصاحبه، عبدين مملوكين، فتمنى صاحبه أن يُباع لطبّاخ حتى يملأ بطنه بما يشاء من الأطعمة، وتمنى «كافور» أن يملك مصر، فكان أن بيعَ الأول لطبّاخ، وكافور لقائد عسكري، فأظهر كافور كفاءة واقتداراً أثناء خدمته لسيّده، فلما مات مولاه قام مقامه.

ومرّ «كافور» ذات يوم بصاحبه، فقال لَمْن معه من حاشيته : لقد قعدت بهذا همّته، فكان كما ترون، وطارت بي همّتي فكنت كما ترون، ولو جمعتني وإيّاه همّة واحدة لجمعنا عمل واحد، يقو الشاعر :

»وما المرء إلا حيث يجعل نفسه
فكن طالباً في الناس أعلى المراتب«

هَمّ الدراسة

□ في سنيّ الدراسة يقلق الشاب والشابة فيعيشان هموم المستقبل، ورغم أن كلاً منهما قد اختط طريقه باختيار الفرع الدراسي العلمي أو الإنساني الذي يرغب فيه أو الذي ألجأته إليه علاماته التي حاز عليها في امتحان الإعدادية، إلا أنه يبقى يعيش هذا القلق.

والشاب الجاد المثابر لا يعتبر دراسته الجامعية هي آخر محطة في طريق حياته، فكم من الحاصلين على الشهادات الجامعية واصلوا طريق العلم، فحازوا شهادات أعلى، وكم من الذين تخرجوا في اختصاص معيّن برعوا في اختصاصاتهم – جرّاء مواصلة البحث – حتى فاقوا الذين سبقوهم في هذا المضمار أو ذاك.

وبما أنه «ما كل ما يتمنى المرء يدركه»، فقد لا يوفّق البعض منّا لإكمال دراسته، إما بسبب ظروف عائلية خاصة أو مالية خانقة أو سياسية ضاغطة، لكننا رأينا مَنْ شق طريقه في الحياة وتفوق في مواهبه على كثير من أقرانه.

»الدراسة – إذاً – هي همّ من هموم المستقبل، وحريّ بها أن تكونَ كذلك، فهي الأساس والعماد الذي ينطلق منه الشاب أو الشابة ليمارس اختصاصه، ولقد ولّى أو كاد الزمن الذي يعتبر فيه الطالب شهادته الجامعية هي أعلى مراتب بذله وجهوده، فيركن إليها ما بقي من حياته، فنحن اليوم أمام حياة متطورة لا تقبل بالمستوى الذي كان مقبولاً بالنسبة لآبائنا، فالشهادة الجامعية اليوم قد تكون كشهادة الإعدادية بالأمس، والماجستير مرحلة إعداد للدكتوراه، بل حتى الحائزون على الدكتوراه يواصلون دراساتهم وأبحاثهم، وهناك مَنْ نال أكثر من شهادة دكتوراه.

وإذا كان زميلي أو جاري أو قريبي أو صديقي قادراً على الوصول إلى ما وصل إليه من مركز علمي مرموق، فبإمكاني – ضمن شروط وظروف مماثلة – أن أصل إلى ما وصل إليه، فالمستقبل لا يحابي أحداً ولا ينحاز إلى أحد، أبوابه مفتوحة للجميع، فأما الذين دخلوا من أبوابه الواسعة فهم الذين تحوّل عندهم «همّ» المستقبل إلى «همّة»، وقديماً قيل : «مَنْ جدّ وجدَ ومَنْ زرع حصد«.

هَمّ العمل

□ الهمّ الآخر الذي يدور في أذهان الشبّان وربما كان يؤرّقهم هو «العمل»، فقد يتخرج الشاب من الجامعة، لكنه لا يجد العمل المناسب الذي يحمل اختصاصاً فيه، وقد تضطره ظروف الحياة إلى استبدال اختصاصه أو العمل بغير هذا الاختصاص، فإما أن يقاتل من أجل أن يوظّف طاقته في المجال الذي يحب ويرغب، وإما أن يتعذر عليه ذلك فيصطدم بواقع لا يمكّنه من تحقيق إرادته، فإذا نلت ما تتمنى كان حقاً عليك أن لا تعيش الرتابة في عملك، بل عليك أن تسعى لأن تكون المميز بين زملائك، المبدع في حقل عملك، النازع إلى تطوير خبرتك وإثراء تجربتك، وأن لا تعتبر ما أنت فيه خاتمة المطاف.

أما إذا حالت الظروف الصعبة بينك وبين الوصول إلى الموقع العملي الذي تطمح إليه، فإن عليك أن تتذكر أنك ربما خسرت موقعاً، ولكن بقيت أمامك مواقع قد تجد فيها ذاتك، فما آتاك الله من المواهب والإمكانات والطاقات لا تحدّ بمجال معيّن، فكم رأينا شباباً طموحين أبدعوا حتى في غير مجال اختصاصهم، لسبب بسيط، وهو أنهم رفضوا الاستسلام للهزيمة أو للظروف غير المواتية.

هَمّ الحصول على المال

□ الهمّ الثالث هو «المال»، فمتطلبات الحياة اليوم كثيرة، والدخل الذي يحققه الشاب قد لا يتناسب مع حجم المتطلبات، وإزاء هذا المشكل لا بد أن نرسم موازنة بين ما نجنيه من مال وبين حاجاتنا الأساسية والضرورية، لأن قائمة الاحتياجات لو تركت مفتوحة فإنها لن تنتهي، لذا ليكن شعارنا «المال بخدمتنا، ولسنا بخدمة المال»، لكن تنمية الدخل وتحسينه أمر لا عيب فيه، بل هو من طموحات الإنسان الذي يرفض المراوحة، ذلك أن القبول بالقليل في حين أن الوصول إلى الأكثر متاح يعد عجزاً وتقاعساً، والله تعالى يقول : «فَامْشُوْا فِيْ مَنَاكِبِهَا وَكُلُوْا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُوْر« (الملك).١٥ :

ورغم أن المشكلة المالية تتعب الكثير من الشبّان وتؤرّقهم، مما تضطر بعضهم إلى العمل في أكثر من مجال، وتضطر آخرين إلى الهجرة إلى بلدان تتاح فيها فرص أوسع للعمل، إلا أن ما نحب أن نلفت الانتباه إليه هنا هو أن تطوير القابليات والمهارات وتنمية المواهب واللجوء إلى مزيد من التخصص والاتكال على الله، سبيل من السبل الكفيلة للخروج من هذا المأزق.

على أية حال، المال مهم، لكنه يجب أن لا يكون أكبر همّنا، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، ولقد طلب بعض المسلمين أن يدعو لهم رَسُوْل الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ليكونوا من الأثرياء، وكانوا قبل الثراء من عبّاد الله والمتقربين إليه بطاعتهم، وقد نصحهم النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يعيشوا الكفاف، فهو أفضل لحالهم، لكنهم أبوا إلا الثراء، فدعا لهم النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، فلمّا أثروا خفّت عبادَاتهم في البداية، ثم قصّروا عنها، ثم تركوا بعضها، لذا فإن القناعة لا تتصادم مع السعي للحصول على المال، لكن التهالك والتكالب على المال هو المشكلة، وحب الدنيا الذي من مظاهره حب المال، كماء البحر كلما ازددت شرباً منه ازددت عطشاً.

إننا لا نقول لِمَنْ يفكر في إنشاء مشروع مالي تجاري أو غير تجاري، لا تفعل، لأنك غداً تموت، بل نقول له : «خُذ نصيبك من الدنيا وتمتع بحلالها وطيّباتها، ولكن لا تكن الدنيا أكبر همّك ولا مبلغ علمك، لأن ما زاد عن حاجتك فستتركه للورثة، لأن للمال الزائد همومه ومشاغله وتبعاته«.

هَمّ الزواج وبناء الأسرة

□ وهناك – أيضاً – همّ «الزواج»، كمشروع مستقبلي، فغالباً ما يفكر الشاب «فتى أو فتاة» في هذا المشروع الاجتماعي المبارك، بل يشغل حيّزاً واسعاً من اهتمامهما، فهما يقبلان على تشكيل نواة لأسرة إسلامية يعيشان في ظلال سعادتها وهنائها بما أنعمه الله تعالى على كلٍ منهما بنعمة الآخر «الشريك» : «وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً«، (الروم).٢١ :

إن شركة الحياة الزوجية مشروع مستقبلي عظيم الأهمية يتطلب حسن الاختيار من كلا الطرفين، ولقد أراد الله سبحانه وتعالى للمؤمن أن يتزوج بكفؤه المؤمنة، كما أراد لها ذلك، لأنهما يتناسبان فكراً وروحاً وطباعاً وهدفاً، وبالاختيار الموفّق يمكن أن نحكم على أن المستقبل الاجتماعي سيحظى بأسرة صالحة تعد الحلقة الأساس من حلقات المجتمع الصالح المؤمن السعيد.

ولعل ما جاء في الحديث من قول الرّسُوْل صلّى الله عليه وآله وسلّم : «تخيّروا لنطفكم فإنّ العِرْقَ دسّاس»، صريحٌ في أن الزواج ليس قسمةً ونصيباً بمعنى أنه قضاء مُبرم لا مردّ له، طالما أن المؤمن والمؤمنة في الخيار، فكما للمؤمن حق الاختيار كذلك للمؤمنة الحق نفسه : «إذا جاءكم مَنْ ترضون دِينه وخُلقه فزوّجوه«.

ولا بدٍ من الإستعداد لهذا المشروع المستقبلي «نفسياً وعملياً»، فلقد دخل بعض الشبّان والفتيات الحياة الزوجية وهما لا يفهمان منها الكثير، مما أدى إلى نهايات مؤسفة : نزاعات بيتية أو طلاق، ولو أن الاثنين استعدّا وتأهّبا وتأهّلا لمسؤولية الحياة الزوجية وعرفا متطلباتها وتثقّفا على العيش المشترك، لما شهدنا حالات الانفصال السريع والخصومات المتكررة.

إن الذي يريد أن يدخل «مؤسسة الزواج» كَمَنْ يريد الدخول إلى أية مؤسسة تتطلب مؤهلات معيّنة، بل الاهتمام بهذه المؤهلات في المؤسسة الزوجية أشد، لأنها رفقة عُمْر ومسؤولية مشتركة ومشروع تعاوني، لذا كان منَ الضروري التخطيط لهذا المشروع ودراسة أبعاده المختلفة والتأنّي في الاختيار وتوطين النفس على تحمل كل التبعات والمسؤوليات الجديدة.

هَمّ العمل الاجتماعي

□ اهتماماتنا كشبّان لا تنحصر في الأمور الذاتية – فقط – بل بقضايا مجتمعنا، أيضاً، فالإسلام يريد للمسلم أن لا ينغلق داخل قوقعة ذاته وينسى أنه ابن مجتمع يريد منه أن يساهم في بنائه وتطويره وخدمته ورفع مستوى أبنائه بما أوتي هو من قدرة على ذلك.

إن عملك الذي تحصل منه على دخل معيّن مطلوب، كما أن عملك في سبيل الله – في خدمة المسلمين والناس من حولك – مطلوب، أيضاً، وله أجره، كما أن لعملك أجره، فلا يفوتك شيء، بل إن دائرة الإنسان وآفاقه تتسع من خلال اهتماماته الاجتماعية والخيرية والمدنية والتعاونية والتثقيفية، وكما يهمّني مستقبلي كشاب أريد بناء حياتي، فإن بناء مستقبل وطني وشعبي وأمّتي هَمٌ من همومي، لأن مستقبلها الزاهر ينعكس على مستقبلي، كما أن مستقبلي المشرق ينعكس على مستقبلها.

هَمّ السُّمعة والشهرة

□ ثمة همٌ آخر هو همّ الجاه والسمعة والشهرة، وعلينا، شبّاناً وشابات، أن لا نستعجله، فهو آت إن أحسنّا الأداء في عملنا والتزمنا الصبر حتى يحين موعد الحصاد، وعلينا أن نعمل، ولله تعالى أن ينشر عطر أعمالنا ويذيع عبير إنجازاتنا إن كانت خالصة لوجهه الكريم، فالعمل لإثبات الذات والقدرات والمواهب أمر مشروع، لكن العمل من أجل الرياء وطلب مرضاة الناس ورضاهم غاية لا تدرك، يشوّه الوجه الجميل لأعمالنا، فإذا أخلصنا النية لله تبارك وتعالى واستقمنا على الطريقة التي يريد وقدّمنا خدماتنا للناس على طريقة : «خير الناس مَنْ نفع الناس»، وأدخلنا بذلك السرور على قلوبهم، فإننا نحقق بذلك مرضاة الله : «إنّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورَاً«، (الإنسان).٩ :

ولسوف يجعل الله تعالى لنا جاهاً مرموقاً ويرزقنا من طيب السمعة ما لا نحتسب، فلنعمل – إذاً – في خدمة الناس ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، وسيكون لنا عند الناس مقام محمود.

ورد في هذه الأدعية «وَكَم من ثناء جميل لستُ أهلاً له نَشَرْتَه»، قدّم أقصى ما تستطيع من مهارات، والمكافأة تأتي.